٤

تنمية الوازع الخلقى (الضمير)

أولًا: الإيمان أساس لإقامة الوازع الخلقى- الضمير.

ثانيًا: تنمية الضمير بإخلاص العبادة وإخلاص العمل لله تعالى.

ثالثًا: تنمية الضمير بتدبر قصص ذوى الضمائر الصحيحة المتيقظة وذوى الضمائر المريضة الغافلة.

رابعًا: إيقاظ الضمير وصقله باستشعار مراقبة الله عز وجل.

خامسًا: إيقاظ الضمير منذ الطفولة باستشعار مراقبة الله تعالى الدائمة.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع
تنمية الوازع الخلقى (الضمير)

مقدمة :

الضمير هو مجمع لخلاصة التجارب التى نمر بها، وما تلقيناه من قبل، وما تعلمناه من معايير، وما تربينا عليه من تعاليم ربانية ونبوية... هو هذا القاضى، والمرشد، والموجه، والحاكم الذى أودعه الله فى أعماقنا من أجل أن نهتدى إلى سواء السبيل والصراط المستقيم... وهو ذلك المستودع الخاص بالقيم الأخلاقية والمعايير المجتمعية(١٩٤).

ولو تأملنا حال العالم اليوم... لوجدنا أن ما يعانيه العالم اليوم من تدهور فى الأخلاق وانكباب على الرذائل وانتشار للجرائم هو بسبب ضعف الضمائر وغفلة الشعوب عن خالقها وعن استشعار مراقبته وعظمته سبحانه وتعالى.

obeikandl.com

فصلاح الأخلاق وسموها، رهين بصلاح الضمائر ويقظتها، والتى بدورها رهينة بسلامة القلوب وصحة الإيمان وخشية الرحمن بالغيب وتقواه... وأصحاب هذه الضمائر وتلك القلوب أولئك المتقون الذين وعدهم الرحمن بجنة الخلد، فقال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾(ق:٣١-٣٥).

ولتربية هذه الضمائر... فقد يحرص الأب على تربية ابنه على الأخلاق الحسنة، ناصحًا له وواعظًا... ولكن أنى له هذا فى كل وقت وحين، إذ له ما يشغله، وللابن ما يجعله بعيدًا عن أنظار أبيه، ومن ثم بعيدًا عن نصائحه ومواعظه...

وقد يحرص الأب على تربية ابنه ليتخلق بالأخلاق الحسنة، بأن يكون قدوة حسنة أمام ابنه يقتدى به... ولكن أنى له ذلك فى كل وقت وحين، إذ له ما يشغله، فيغيب عن ابنه معظم الوقت، ومن ثم تغيب بغيابه القدوة الحسنة من أمام الابن...

وقد يحرص الأب على سلامة أخلاق ابنه بصيانته من قرناء السوء، وحمايته من أن يتخلق بالأخلاق السيئة... ولكن أنى له ذلك فى كل الأوقات، حيث يصعب- إن لم يستحيل- حجب ابنه عن رفاقه

وأصدقائه، كما يصعب- إن لم يستحيل- متابعته فى كل وقت وحين وفى كل مواقفه ليحميه من سيئ الخلق منهم...

لذلك... تقتضى التربية السليمة للأبناء، تربية ذلك الحارس الخصوصى، وذلك الوازع الخلقى (الضمير)، ليكون ملازمًا لهم فى كل وقت وحين، وموجهًا لهم إلى طريق الخير والصلاح وما يتفق والأخلاق الفاضلة، وعاصمًا لهم- بعون الله- من الانزلاق فى طريق الغواية والضلال ومن التخلق بالأخلاق الفاسدة.

ذلك الوازع الخلقى (أى الضمير) الذى بحاجة إلى الغرس المبكر وإلى الرعاية المستمرة، وذلك ببذر بذرته من الصغر، ثم تعهده بالرعاية والتنمية وبالوقاية والعلاج على طول الحياة، حتى لا يضعف أو يموت.

لذلك جاء هذا الفصل- الرابع- تحت عنوان: "تنمية الوازع الخلقى- أى الضمير"، ليتناول تربية الضمير، من خلال أربعة محاور رئيسية هى:

- الإيمان أساس لإقامة الوازع الخلقى- الضمير.
- تنمية الضمير بإخلاص العبادة وإخلاص العمل لله تعالى.
- تنمية الضمير بتدبر قصص ذوى الضمائر الصحيحة المتيقظة وذوى الضمائر المريضة الغافلة.
- إيقاظ الضمير وصقله باستشعار مراقبة الله عز وجل.

أولاً: الإيمان أساس لإقامة الوازع الخلقى ـ الضمير:

لا تنفصل الأخلاق عن الإيمان بالله... فمع ازدياد الإيمان بالله، يستشعر العبد مراقبة ربه له، وتزداد مراقبته هو لربه سبحانه وتعالى، فيحسن خلقه ويستقيم.

وذلك جامع أوصاف الإسلام، الإيمان ثم الاستقامة، لتقوم الاستقامة على أساس سليم ومتين... فعن سفيان بن عبد الله الثقفى، قال: قلت يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك- وفى حديث أبى أسامة قل لى فى الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك- قال ﷺ: (قل آمنت بالله ثم استقم)[١٩٥]... والاستقامة هى جامع الأخلاق.

والأخلاق تتناسب طرديًّا مع الإيمان بالله والعلم بمراقبته سبحانه... فكلما قوى الإيمان بالله، قوى الضمير، وازدادت مراقبة العبد لربه، فحسن خلقه... وكلما ضعف الإيمان بالله، وغابت الخشية والمراقبة، ضعف ضمير العبد، وساء خلقه... فالأخلاق الحسنة دليل على يقظة الضمير، وعلى إيمان صاحبها ومراقبته لمولاه... وسوء الأخلاق دليل على قلة المراقبة وضعف الضمير وضعف اليقين.

فمهما ضعف إيمان العبد ضعف ضميره، وصار لا يتورع عن المعاصى والمحرمات:

- فهل لدى الزانى حين يزنى ضمير واق ورادع؟ وهل يؤمن بأن الله يراقبه؟... وقد قال النبى ﷺ فيما رواه أبو هريرة: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن).
- وهل لدى السارق حين يسرق ضمير واق ورادع؟ وهل يؤمن بأن الله يراقبه؟... وقد قال النبى ﷺ فى الحديث السابق: (ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن).
- وهل لدى شارب الخمر حين يشربها ضمير واق ورادع؟ وهل يؤمن بأن الله يراقبه؟... وقد قال النبى ﷺ فى الحديث ذاته: (ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[١٩٦].
- وهل لدى المنتهب حين ينتهب، ولدى الغال حين يغل، أو المختلس حين يختلس، هل لدى هؤلاء ضمير واق ورادع؟ وهل يؤمنون بأن الله يراقبهم؟... وأبو هريرة يلحق بالحديث السابق لرسول الله ﷺ: (ولا ينتهب نهبة... حين ينتهبها وهو مؤمن)، وقوله: (ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن)[١٩٧]... والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿...وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(آل عمران:١٦١).
- وهل لدى الكاذب المخادع ضمير؟ وهل يراقب الله ويؤمن

بأنه يعلم سره ونجواه كما يعلم علانيته؟... والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(البقرة٧٧).

- وهل لدى المطففين فى الكيل والميزان ضمير؟ وهل يراقبون الله ويؤمنون به؟... وهو يقول لهم فى سورة المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(المطففين:١-٦).
- وهل لدى الغاش حين يغش ضمير؟ وهل لدى المزور حين يزور ضمير؟ وهل لدى الماكر والمخادع ضمير؟ وهل هؤلاء يؤمنون بأن الله يراقبهم؟... والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(البقرة:٢٣٤)، ويقول: ﴿إِنَّ اللهّ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىء فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاء﴾(آل عمران:٥)، ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهّ مِن شَىء فَى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاء﴾(إبراهيم: ٣٨). ورسول الله ﷺ- فيما رواه عبد الله بن مسعود يقول: (من غشنا فليس منا)[١٩٨]. وفى رواية لأبى هريرة: (من غش فليس منا)، أو: (ليس منا من غش)[١٩٩]. وفى رواية ثالثة: (من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار)[٢٠٠].

- وهل للراشين الذين يقدمون الرشوة لكى يحصلون على حقوق ليست بحقوقهم ضمير؟ وهل للمرتشين الذين يعطون الحقوق لغير أهلها ويضيعون الحقوق من أصحابها وذلك فى مقابل الرشوة... هل لهؤلاء ضمير؟ وهل هؤلاء يتقون الله ويؤمنون بأنه يراقبهم؟... وأين هؤلاء من قول رسول الله ﷺ، فيما رواه عبدالله بن عمرو، حيث قال ﷺ: (لعنة الله على الراشى والمرتشى)[٢٠١]. وفى رواية لأبى هريرة قال ﷺ: (لعن الله الراشى والمرتشى)[٢٠٢].

- وهل للراعى الذى يستغل رعيته ويغشهم ضمير؟ وهل يؤمن بأن الله يراقبه؟ وأين هذا من قول رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار: (أيما راع غش رعيته فهو فى النار)، وفى رواية: (أيما راع استرعى رعية فغشها فهو فى النار)[٢٠٣]، وفى رواية ثالثة: (ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية، يموت يوم يموت وهو غاش رعيته، إلا حرم الله تعالى عليه الجنة)[٢٠٤].

- وهل للموظف الذى يستغل الوظيفة أو المنصب لصالحه أو لصالح أهله وذويه، أو يضيع ساعات العمل بدون عمل، فيأكل بذلك السحت والحرام، هل لهذا ضمير؟ وأين هذا من قول رسول الله ﷺ فيما رواه كعب بن عجرة: (...إنه لا يربو لحم نبت من سحت، إلا كانت النار أولى به)[٢٠٥]، ومن قوله

عليه السلام فيما رواه أبو بكر الصديق: (لا يدخل الجنة جسد غذى بالحرام)[٢٠٦].

- وهل لدى مستورد الأغذية الفاسدة، ومستورد المبيدات المسرطنة، وجالب المخدرات ومهربها، ومستورد الخمور ومصنعها... هل لدى هؤلاء ضمير؟ وهل هم مؤمنون بأن الله يراقبهم؟... والحق تبارك وتعالى يقول لهم ولأمثالهم: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة:٧٤).

وهكذا... فعلينا كآباء ومربين، أن نعى تمامًا بأنه بقدر اهتمامنا بغرس الإيمان الصحيح وتنميته فى نفوسنا وفى نفوس أبنائنا، بقدر تهيئتنا التربة الصالحة والبيئة المناسبة لإقامة الضمير والوازع الخلقى الذى يحمى صاحبه بإذن الله تعالى من اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصى والآثام ويردعه.

ثانيًا: تنمية الضمير بإخلاص العبادة وإخلاص العمل لله تعالى:

إنه متى أخلص العبد فى عبادته وفى أعماله لله تعالى وحده، زاد اتصاله به وزادت خشيته منه، ونما لديه ذلك الوازع والرادع، الذى يوجه صاحبه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، ألا وهو الضمير.

فالمصلى الخاشع إذ يحس برهبة المثول المتكرر بين يدى الحضرة الإلهية خمس مرات فى اليوم والليلة، يقوى إيمانه، وينمو ضميره،

فترتدع نفسه عن الشهوات وتعدل عن الآثام والمنكرات... وإلى هذا المعنى يشير الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

ومتى كان العبد مخلصًا فى صلاته، خاشعًا لله، كانت سببًا فى الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة... وهذا ما يؤكده قول الحق تبارك وتعالى، حيث يجعل أول صفة من صفات المؤمنين الفالحين الفائزين فى الدنيا والآخرة خشوعهم فى الصلاة، حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(المؤمنون:١-٢).

ومتى كان العبد مخلصًا فى صلاته، خاشعًا فيها لله، كانت سببًا فى مغفرة ذنوبه وتقوية صلته بالله وفى زيادة ضميره يقظة ونماء... وإلى هذا المعنى يشير قول رسول الله ﷺ، فيما رواه أبو هريرة: (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢٠٧].

وفى المقابل، انظر لذلك المرائى- غير المخلص- فى صلاته أو فى عمله، وكيف توعده الله بالويل والعذاب الشديد... حيث قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(الماعون:٤-٧)... وانظر لذلك من ينفق ماله رئاء الناس، وكيف يبطل برياؤه ثواب عمله... حيث قال

المولى سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ...﴾(البقرة:٢٤٦)... بل وكيف يصف المولى الرائى بالنفاق، حيث يضمر خلاف ما يظهر، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَّ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللهَّ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للهَّ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُّ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(النساء:١٤٢-١٤٦).

ومتى كان العبد مخلصًا فى صيامه محتسبًا إياه لله تعالى، كان سببًا فى مغفرة ذنوبه وقويت صلته بالله وزاد ضميره يقظة ونماء... وإلى هذا المعنى يشير قول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة: (من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢٠٨]، وفى رواية: (من صام رمضان وقامه إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢٠٩].

ومتى كان العبد مخلصًا فى حجه ولم يرفث ولم يفسق، عاد بضمير صاف مغفور الذنوب، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[٢١٠]، أى بلا ذنوب، وعنه قال ﷺ: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[٢١١].

وهكذا سائر العبادات، حتى الدعاء والذكر، متى كانت خالصة لله، كانت سببًا لدخول الجنة، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ فيما رواه جابر وأبو سعيد، حيث قال ﷺ: (من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة)[٢١٢]، وقوله فيما رواه أبو هريرة: (من قال: سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[٢١٣].

بل وسائر الأعمال متى كانت خالصة لوجه الله تعالى، وأديت بالكيفية التى ترضيه سبحانه، كانت سببًا لصفاء القلوب ونقاء الضمائر، فتأتى الأفعال والأعمال وفق الأخلاق الحسنة، وكانت سببًا فى دخول صاحبها الجنة.

ثالثًا: تنمية الضمير بتدبر قصص ذوى الضمائر الصحيحة المتيقظة وذوى الضمائر المريضة الغافلة:

لقد أورد الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز الكثير من قصص الصالحين والمتقين، وقصص الجبارين والظالمين. وأمر سبحانه وتعالى رسوله الكريم، وأمرنا معه، أن نقصص القصص للتفكر والتدبر والاعتبار... فقال سبحانه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦)، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ (يوسف:١١١).

ولعل فيما سيرد بهذا المجال من قصص، تذكير بفعل الصالحين وجزائهم، للترغيب فيه، وتذكير بفعل الغافلين والظالمين وجزائهم،

للترهيب منه، وتذكير بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:٧-١٠)... وليكون لتلك القصص دور فى إيقاظ الضمائر وتنميتها.

ولعل من تلك القصص، التى يأمل أن يكون لها دور فى إيقاظ الضمائر وتنميتها، ما يلى:

القصة الأولى: قال الراعى: فأين الله؟[٢١٤]:

يروى ابن الجوزى فى (صفوة الصفوة) بسنده عن نافع، قال: خرجت مع ابن عمر فى بعض نواحى المدينة، ومعه أصحاب له، فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راع، فقال له عبدالله: هلم يا راعى، فأصب معنا من هذه السفرة، فقال: إنى صائم. فقال له عبدالله: فى مثل هذا اليوم شديد الحر، وأنت فى هذه الشعاب فى آثار هذه الغنم، وبين الجبال، ترعى هذه الغنم، وأنت صائم؟ فقال الراعى: أبادر أيامى الخالية.

فعجب ابن عمر وقال: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك

نجتزرها- أى نذبحها- ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه، ونعطيك ثمنها؟ قال الراعى: إنها ليست لى، إنها لمولاى. قال فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت له: أكلها الذئب؟ فمضى الراعى، وهو يرفع إصبعه للسماء، وهو يقول: فأين الله؟... قال: فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعى: فأين الله؟.

فما عدا ابن عمر أن قدم المدينة. فبعث إلى سيده، فاشترى منه الراعى والغنم، فأعتق الراعى، ووهب له الغنم، رحمه الله.

القصة الثانية: عبدالله بن المبارك ثمرة الأمانة والضمير الحى[٢١٥]:

كان رئيس مرو وقاضيها رجل اسمه نوح بن مريم، وكان ذا نعمة وجاه وثراء، وفوق ذلك كان صاحب دين، وكانت له ابنة حالها كحاله، دين وتقوى وخلق وفوق ذلك حسن وجمال، خطبها منه جماعة من أكابر الرؤساء وذوى النعمة وأكثروا فلم ينعم بها لأحد منهم...

وكان له غلام هندى اسمه مبارك، لا يملك من الدنيا قليلًا ولا كثيرًا، لكنه يملك الدين والخلق، ومن ملكهما فقد ملك كل شىء... فأرسله سيده إلى بستان عامر غامر الأشجار والفاكهة والثمار، فقال للغلام: أريدك أن تمضى وتحفظ البستان وتخدمه. فمضى وأقام فى البستان شهرين، وجاءه سيده ليستجم فى بستانه ويستريح. فقال: يا

مبارك ائتنى بقطف من عنب... فناوله عنقودًا فوجده حامضًا. فقال له سيده أعطنى غير هذا، فناوله عنقودًا فكان حامضًا، وجاءه بثالث فإذا هو حامض...

وكاد الغضب أن يستولى على سيده، فقال يا مبارك أطلب منك قطف عنب قد نضج، وتأتينى بقطف لم ينضج، ألا تعرف حلوه من حامضه؟... قال: والله ما أرسلتنى لآكله، وإنما أرسلتنى لأحفظه وأقوم على خدمته. والله الذى لا إله إلا هو ما ذقت منه عنبة واحدة، والذى لا إله إلا هو ما راقبتك، ولا راقبت أحدًا من الكائنات، ولكنى راقبت الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

فتعجب سيده به، وأعجب به وبورعه، وقال: الآن أستشيرك- والمؤمنون نصحة والمنافقون غششة، والمستشار مؤتمن. فقال: تقدم لابنتى من أصحاب المال والثراء فلان وفلان... فمن ترى أن أزوج هذه البنت. فقال مبارك: لقد كان أهل الجاهلية يزوجون للأصل والحسب والنسب، واليهود يزوجون للمال، والنصارى يزوجون للحسن والجمال، وعلى عهد رسول الله ﷺ يزوجون للدين والخلق، وفى زمننا هذا يزوجون للمال والجاه، والمرء مع من أحب، فاختر لابنتك من بين هؤلاء ما تريد.

فنظر الرجل فى أمره فما وجد خيرًا من مبارك... فقال يا غلام قد

اخترت الدين والتقى، وأريدك زوجًا لابنتى، لأنى قد وجدت فيك الدين والصلاح، وجربت منك التقى والأمانة... وأنت حر لوجه الله.

فقال الغلام: أيها السيد أنا عبد رقيق هندى، وابتعتنى بمالك، كيف تزوجنى بابنتك، وكيف تختارنى لابنتك وترضانى؟... فقال: لقد قلبت النظر فوجدت أنك خير من يتزوج بهذه البنت، فقال مبارك: اعرض عليها... فلما عرض عليها، وحكى لها، قالت: أترضاه لى؟ قال: نعم، فرضيت به، فتزوجا.

فكان الزواج المبارك من مبارك، وأعطاهما الأب مالًا عظيمًا، وكان من ثمرة هذا الزواج المبارك عبدالله بن المبارك صاحب العلم والزهد والمحدث الحافظ الفقيه، رحمه الله.

القصة الثالثة: عمر بن الخطاب وابنة بائعة اللبن وثمرة المراقبة[٢١٦]:

هذا هو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يقيم وزنًا عند اختياره بنت بائعة اللبن، زوجًا لابنه عاصم للحسب أو النسب ولا للمال أو الجاه، وإنما أقام الوزن كله لما أظهرته تلك الفتاة الطيبة من إيمان بالله ومراقبة له فى السر والعلانية، ويقين بأن الله جل وعلا لا تخفى عليه خافية، حتى قد بلغت- وهى الفتاة الرقيقة الحال الفقيرة

فى الجاه والمال- فى عبادتها لربها درجة الإحسان، فهى تعبد الله كأنها تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراها.

كان الفاروق عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال الرعية ذات ليلة، فسمع امرأة تقول لابنة لها: قومى إلى ذلك اللبن فامزجيه بالماء، فأجابت الفتاه: يا أماه، أما علمت بما كان من عزم أمير المؤمنين؟ قالت المرأة: وما كان من عزمه يا بنيه؟ قالت إنه أمر مناديه فنادى: لا يشاب اللبن بالماء، فردت المرأة قائلة: يا بنية، قومى إلى اللبن فامزجيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر. فردت الفتاة على الفور: يا أماه، إن كان عمر لا يعلم، فإله عمر يعلم، والله ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء.

فلما أصبح عمر، قال لابنه عاصم: اذهب على مكان كذا وكذا، فإن هناك صبية، فإن لم تكن مشغولة فتزوج بها، لعل الله أن يرزقك منها نسمة مباركة... وصدقت فراسة الفاروق رضى الله عنه، فتزوج عاصم بتلك البنية، فولدت له "أم عاصم"، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز الأمير العادل- رحمه الله تعالى- ورضى عنه.

القصة الرابعة: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله[٢١٧]:

إنها قصة صاحب الضمير الحى، الذى يتقى الله ويخشاه، أمام

أصحاب الضمير الميت، الذين يخونون الله فى الخفاء، ويظهرون التقوى والورع فى العلانية.

حُكى أن خدم أحد الملوك التقطوا طفلًا كان مطروحًا بالطريق، فأمر الملك بضمه إلى أهل بيته، وسماه أحمد اليتيم... فلما نشأ، ظهرت عليه علامات النجابة والفطنة، فهذبه وعلمه، واصطفاه وقدمه فى جميع أعماله وشئون قصره... وذات يوم أمره أن يحضر شيئًا من بعض حجراته، وحين ذهب، رأى جارية- كانت مقربة من الملك- فى حال مريبة مع أحد الخدم، فتوسلت إليه أن يكتم خبرها، وعرضت نفسها عليه، فقال: معاذ الله أن أخون، ثم تركها وانصرف.

فأوجست الجارية فى نفسها خيفة، وتوهمت أنه سيفشى سرها، فذهبت إلى الملك باكية شاكية فسألها، فقالت: إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وهم أن يقهرها على فعل منكر، فغضب أشد الغضب، وعزم على قتله.

فقال الملك لكبير الخدم: إذا بعثت إليك أحدًا بكذا أو كذا فاقتله، وابعث برأسه إلى، وبعد قليل أحضر الملك أحمد اليتيم، وقال له: اذهب إلى فلان واطلب منه كذا وكذا، فامتثل وذهب، وفيما هو فى طريقه لقى بعض الخدم، فحكموه فى أمر اختلفوا فيه، فأخبرهم بما هو مكلف به، فقالوا نبعث الخادم فلان، ليحضر ما تطلب، حتى تفصل فى أمرنا، فأجابهم إلى ما طلبوا.

وذهب ذلك الخادم، وأخبر رئيس الخدم برسالته فقتله وجز رأسه، وجاء بها إلى الملك، فلما أبصره وكشف عنه الغطاء، رأى رأسًا أخرى، فأمر بإحضار أحمد اليتيم، فسأله عن خبره، فأخبره بما كان. فقال له الملك: أتعرف لهذا الخادم ذنبًا؟... قال: نعم. إنه فعل كذا وكذا مع فلانة الجارية، وقد سألانى بالله ربى أن أكتم خبرهما، فلما سمع الملك ذلك سكن ما به، وأمر بقتل الجارية، وأعاد إلى أحمد اليتيم ثقته به، واطمئنانه إليه.

القصة الخامسة: رفض أن يعطيه دينارًا ثم أعطاه ألفى دينار[٢١٨]:

عن الحسن بن محمد الأنبارى الكاتب، قال: كان لى جار تاجر- يعرف بجعفر بن محمد- وكنت آنس به، فحدثنى، قال: كنت أحج دائمًا وأنزل على رجل علوى حسينى فقير، مستور، فألطفه وأتفقده. فتأخرت عن الحج سنة ثم عاودت، فوجدته مثريًّا، فسررت وسألته عن سبب ذلك. فقال: كان قد اجتمع معى دريهمات على وجه الدهر، ففكرت عام أول أن أتزوج فإنى كنت أعزبًا، كما قد علمت، ثم علمت أن فرض الحج قد تعين على، فرأيت أن أقدم أداء الفرض، وأتوكل على الله عز وجل فى أن يسهل لى- بعد ذلك- ما أتزوج به.

فلما حججت، طفت طواف القدوم، وأودعت رحلى وكل ما كان معى فى بيت- استأجرته- وأقفلت بابه، وخرجت على منى... فلما

عدت وجدت البيت مفتوحًا فارغًا، فتحيرت ونزلت بى شدة ما مر بى قط مثلها، فقلت هذا أعظم للثواب، فما وجه الغم، فاستسلمت لأمر الله عز وجل، فجلست فى البيت لا حيلة لى، ولا تسمح نفسى بالمسألة فاتصل مقامى ثلاثة أيام، ما طعمت فيها شيئًا... فلما كان فى اليوم الرابع، بدأ فى الضعف، وخفت على نفسى. وذكرت قول جدى رسول الله ﷺ: (ماء زمزم لما شرب له). فخرجت أريدها حتى شربت منها، ورجعت أريد باب إبراهيم الخليل عليه السلام لأستريح فيه.

فبينما أنا أسير إذ عثرت فى الطريق بشىء أوجع أصبع قدمى، فأكببت عليه لأمسكه، فإذا هو كيس كبير من الجلد، فأخذته، فلما حصل فى يدى ندمت وعلمت أن اللقطة- ما لم تُعَّرف- حرام. وقلت: إن تركته الآن أنا المضيع له، وقد لزمنى أن أعرفه، ولعل صاحبه إذا رجع إليه، أن يهب لى شيئًا أقتاته حلالًا.

فجئت إلى بيتى وفتحت الكيس، فإذا فيه دنانير صفر، تزيد على ألفى دينار، فسددته ورجعت إلى المسجد، فجلست عند الحجر وناديت: من ضاع منه شىء، فيأتينى بعلامته ويأخذه... فانقضى يومى وأنا أنادى وما جاءنى أحد، وأنا على حالى من الجوع... وبت فى بيتى ليلتى كذلك. وعدت إلى الصفا والمروة، فعّرفته عندها يومى حتى كاد ينقضى، فلم يأتنى أحد. فضعفت ضعفًا شديدًا، وخشيت على نفسى، فرجعت متحاملًا ثقيلًا حتى جلست على باب إبراهيم

الخليل، وقلت قبل انصرافى: إنى قد ضعفت عن الصياح وأنا ماض أجلس على باب إبراهيم، فمن رأيتموه يطلب شيئًا ضاع منه فأرشدوه إلى.

فلما قرب المغرب، وأنا فى الموضع، إذا أنا بخراسانى ينشد ضالة، فصحت به: صف لى ما ضاع منك، فأعطانى صفة الكيس بعينه، وذكر الدنانير وعددها. فقلت: إن أرشدتك إلى من يرده عليك، تعطينى منه مائة دينار؟ قال: لا. قلت فخمسين دينارًا؟ قال: لا. قلت فعشرة دنانير؟ قال لا. فلم أزل أنزل معه حتى بلغت إلى دينار واحد. فقال: لا. بل يرده من هو عنده إيمانًا واحتسابًا، وإلا فهو أبصر، وولى لينصرف.

فورد على أعظم وارد، وهممت بالسكوت، ثم خفت الله سبحانه وتعالى وأشفقت أن يفوتنى الخراسانى. فصحت به: ارجع، ارجع... وأخرجت الكيس، فدفعته إليه، فأخذه ومضى، وجلست ليس لى قوة على المشى إلى بيتى.

فما غاب عنى إلا قليلًا، حتى عاد، فقال لى: من أى البلاد أنت؟ ومن أى الناس؟ فاغتظت منه غيظًا شديدًا، وقلت: ما عليك، هل بقى لك عندى شىء؟ قال: لا. ولكنى أسألك بالله العظيم، من أى الناس والبلاد أنت؟ فقلت: رجل من أهل الكوفة. قال: من أيهم

أنت؟ فقلت: من ولد الحسين بن على بن أبى طالب. فقال: ما حالك ومالك؟ قلت: لا أملك فى هذه الدنيا كلها إلا ما تراه، وقصصت عليه حال محنتى وما كنت طمعت فيه أن يعطينيه من الكيس وما قد انتهيت إليه من الضعف من شدة الجوع.

فقال: أريد من يعرفنى صحة نسبك وحالك. حتى أقوم بجميع أمرك كله. فقلت: ما أقدر على المشى للضعف، ولكن ائت الطواف، وصح بالكوفيين وقل: رجل من بلدكم، علوى، بباب إبراهيم، يريد أن يجيئه منكم من ينشط لحال هو فيها، فمن جاء معك فهاته... فغاب غير بعيد، ثم جاء ومعه من الكوفيين جماعة تصادف أنهم كلهم كانوا يعرفون باطن حالى. فقالوا: ما تريد أيها الشريف؟ فقلت: هذا رجل يريد أن يعرف حالى ونسبى لشىء بينى وبينه، فعرِّفوه ما تعرفون من ذلك... فعرَّفوه صحة نسبى، ووصفوا له طريقتى وعدمى.

فمضى وجاء فأخرج الكيس بعينه، كما سلمته إليه، فقال: خذ هذا بأسره، بارك الله لك فيه... فقلت: يا هذا ما كفاك ما عاملتنى به، حتى تهزأ بى، وأنا فى حال الموت. قال: معاذ الله، هو لك، والله.

فقلت: فلم بخلت على بدينار منه، ثم وهبت لى الجميع؟ فقال: ليس الكيس لى، وما كان يجوز لى أن أعطيك منه شيئًا، قل أو كثر، وإنما أعطانيه رجل من بلدى، وسألنى أن أطلب فى العراق أو فى

الحجاز رجلًا علويًّا، حسينيًّا، فقيرًا مستورًا، فإذا علمت هذا من حاله، فسلمه هذا المال كله ليصير أصلًا لنعمة تنعقد له، فلم تجتمع لى هذه الصفات قبلك فى أحد، فلما اجتمعت فيك، بما شاهدته من أمانتك وفقرك وعفتك وصبرك، وصح عندى نسبك، أعطيتكه.

فقلت له: يرحمك الله، إن كنت تحب استكمال الأجر، فخذ منه دينارًا وابتع لى به دراهم، واشتر بها ما آكله، وصر به إلى الساعة هاهنا. فقال: لى إليك حاجة. قلت: قل. قال: أنا رجل موسر، والذى أعطيتك ليس لى فيه شىء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تقوم معى إلى رحلى، فتكون فى ضيافتى إلى الكوفة، وتتوفر عليك دنانيرك. فقلت: ما فى حركة، فاحتمل فى حملى، كيف شئت.

فغاب عنى ساعة، وجاء بمركوب، وأركبنيه إلى رحله، وأطعمنى فى الحال ما كان عنده، وقطع لى من الغد ثيابًا وكان يخدمنى بنفسه، وعاد بى إلى الكوفة، فلما بلغتها. أعطانى من عنده دنانير أخر، وقال لى: تزود بها بضاعة... وفارقته، وأنا أدعو له، وأشكره، ولم أمس الكيس.

وأخذت أنفق من الدنانير التى أعطانيها الرجل، باقتصاد، إلى أن اشتريت ضيعة رخيصة، فاشتريتها بالكيس، فأثمرت، وأنا من الله عز وجل فى نعمة جزيلة، وخير كثير، والحمد لله على ذلك.

القصة السادسة: دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا[٢١٩]:

روى أنه على عهد رسول الله ﷺ كان هناك رجل مسلم يبيع الحنطة، فجاءته امرأة جميلة، فسألته: هل عندك حنطة؟ قال لها: نعم، ونظر إليها نظرة إعجاب، وأمسك يدها، وقال لها: عندى حنطة فى الداخل أحسن، فتركته المرأة ومشت. فلما رجع الرجل إلى بيته، وجد زوجته حزينة، فسألها، ما الذى يحزنك. قالت: إن السقا الذى يأتينا بالماء كل يوم، يضع قربته فى الإناء وينصرف دون أن يرانى أو أراه. واليوم جاء السقا، وكنت خلف الباب، وبينما هو يضع قربته فى الإناء، أمسك بيدى، وهذه هى أول مرة يعملها، وما عملها ولا حتى نظر إلى من قبل. فقال الرجل: سبحان الله، دقة بدقة ولو زدت لزاد السقا.

ورسول الله ﷺ يقول- (البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت، كما تدين تدان)[٢٢٠]. وإن كان فى هذا الحديث ضعف فى الرواية، إلا أن له من الشواهد ما يحسنه ويؤيده، لقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾(إبراهيم: ٤٧).

وهكذا، فاعتبروا يا أولى الألباب... اعتبر أيها الطبيب، ولا تكن ممن يستغل مرضاه، أو يتاجر فى أعضائهم البشرية... واعتبر أيها المهندس ولا تكن ممن يسرقون فى حديد التسليح فتنهار المبانى على ساكنيها... واعتبر أيها المعلم ولا تكن ممن لا يخلصون فى شرح

دروسهم إلا لمن يحصلون على دروس خصوصية لديه... واعتبر أيها الموظف ولا تكن ممن يستغلون مناصبهم ووظائفهم لصالحهم وصالح أهلهم وذويهم... واعتبر أيها التاجر ولا تكن ممن يغشون فى السلع أو يغالون فى الأسعار أو يحتكرون السلع ويخفونها ليرتفع سعرها... واعتبر أيها المستورد ولا تكن ممن يستوردون السلع والأغذية الفاسدة أو المواد المسرطنة أو البضائع غير المطابقة للمواصفات... وتذكروا جميعًا قول العزيز الجبار: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٧٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَّ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم:٤٢)، ليس هذا فى الآخرة وحدها، بل وفى الحياة الدنيا: ﴿إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (إبراهيم:٤٧). وليعلم الجميع بأن الله منتقم من كل من يكفر بآياته ولم يمتثلها، لقوله سبحانه: ﴿...إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهَّ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * إِنَّ اللهَّ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىء فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاء﴾ (آل عمران:٤-٥).

رابعًا: إيقاظ الضمير وصقله باستشعار مراقبة الله عز وجل:

إن ما يعانيه العالم اليوم من تدهور فى الأخلاق وانكباب على الرذائل وانتشار للجرائم، هو بسبب ضعف الضمائر وغفلة الشعوب عن خالقها وعن استشعار مراقبته واستحضار عظمته سبحانه وتعالى التى تجعل فى القلب رهبة تحول بين الإنسان وبين الميل إلى الشر.

وقد أكد الإسلام أن تحكيم الضمير وكبح جماح النفس وإبعادها عن الهوى والضلال إنما ثواب ذلك الجنة. فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(النازعات:٤٠-٤١). وأمر رسول الله ﷺ بتوطين النفس ومحاسبتها وتحكيم الضمير، حتى ولو رأى الإنسان غيره يفعل الشر. فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا)[٢٢١]. والإمعة هو من لا يحكم عقله وضميره ولا يحاسب نفسه، بل ينساق وراء الآخرين ويتبع كلًا على رأيه ويحاكيه. وروى أبو هريرة فقال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يد خل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)[١٢٢]. فتقوى الله وخشيته واستشعار مراقبته فى السر والعلن، مع حسن الخلق، من أكثر ما يدخل العبد الجنة.

فاستشعار مراقبة الله وخشيته من الدعائم التى تقوم عليها الأخلاق الحسنة، فتسموا بالإنسان إلى كل خير وتنأى به عن كل شر... ولولا خشية الله لاسترسل الإنسان فى شروره، وانكب على شهواته، غير مقيم لمصلحة الغير أى اعتبار[٢٢٣].

والإسلام فى حرصه على حسن الخلق يؤكد على إيقاظ الضمير وصقله بمداومة استشعار مراقبة الله عز وجل، وذلك فى الكثير من

الآيات والأحاديث النبوية، لأن الضمير يقوى ويضعف كما الإيمان يزيد وينقص. فمن الآيات الواردة بكتاب الله فى ضرورة استشعار مراقبة الله، قوله تعالى: ﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ...﴾(الحديد:٤). وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَىء فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاء﴾ (آل عمران:٥)، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفى عَلَى اللهَّ مِن شَىء فَى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاء﴾ (إبراهيم:٣٨). وقوله: ﴿إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)، وقوله: ﴿...وَكَانَ اللهُّ بِكُلِّ شَىء مُّحِيطًا﴾ (النساء:١٢٦)، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَىء قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَّ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىء عِلْمًا﴾ (الطلاق:١٢)...

فالله هو المحيط وهو الرقيب... هو المحيط الذى "أحاط سمعه بالمسموعات وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية. وهو الرقيب على ما دار فى الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان. والرقيب المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، والذى حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير"(٢٢٤).

وهناك الكثير من أحاديث المصطفى ﷺ التى تؤكد استشعار مراقبة الله ليكون الضمير وازعًا على فعل الخير ورادعًا عن فعل الشر... ومن ذلك ما بين فيه ﷺ درجة الإحسان من الإيمان والإسلام... روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينما نحن

جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا). قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان: قال ﷺ: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...)[٢٢٥].

ومن علم أن الله يراه، فكيف له يقترف ذنبًا عنه نهاه؟ ومن علم أن الله يعلم السر وما يخفى، أنى له أن يعتقد أن ما يفعله على الله يخفى؟ ومن أيقن أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، كيف يعتقد المسكين أنه تحجبه الحجب عن ربه أو الستور؟ ثم إياك أن تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظم من تعصى. ثم لو كانت المعصية صغيرة- وقد اقترفتها لأنها صغيرة- من يضمن لك مغفرتها لك؟ ثم من يضمن لك أن يختم لك بها فتسوء خاتمتك فتكون من الخاسرين وفى الآخرة من النادمين؟ يوم لا ينفع ندم ولا حسرة ولا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[٢٢٦].

فاتق الله يا عبدالله وكن دائم اليقظة والتذكر له سبحانه ولا تنساه... فكن يقظ الضمير، وحاسب نفسك لحظة بلحظة، ولا تغرنك الحياة الدنيا بزخارفها فتنسى الله وتعصاه. وكن دائم التذكر لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(الحشر:١٨-١٩). وتذكر دائمًا قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(الأعراف:٥١).

وهكذا... فمهما تذكر العبد ربه فى كل المواقف ولم ينساه، واستشعر اطلاعه سبحانه عليه ومراقبته لأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته، فإن هذا من أقوى الدواعى له على التقوى والمراقبة، ومن أقوى الدواعى له على التخلق بالأخلاق الحسنة، واجتناب الأخلاق السيئة... ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل: خلوت ولكن قل: علىَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى، عليه يغيب.

خامسًا: إيقاظ الضمير منذ الطفولة باستشعار مراقبة الله تعالى الدائمة:

إن مما تقتضيه تربية الضمير لدى الإنسان، بذر بذرته منذ الطفولة لديه، ثم تنميته ومداومة صقله وإيقاظه باستشعار مراقبة الله له

سبحانه وتعالى، طمعًا فى رضا الله وجزيل ثوابه، ورهبة من غضبه وعقابه.

وإليك عزيزى القارئ والمربى ذلك المثال العملى، لحرص الأم على غرس وتنمية الضمير لدى ابنها منذ الصغر، والذى حدث معى فى طفولتى بأواخر المرحلة الابتدائية، باستشعار مراقبة الله له، وترهيبه من عقابه العاجل والآجل، متى حدث منه ما يغضب المولى عز وجل.

فذات يوم، ومنذ نحو أربعين عامًا أو يزيد، وفى سوق القرية، الذى يعقد يومًا واحدًا فى الأسبوع، وتحضره كل القرى والنجوع المجاورة، لتبيع محاصيلها ومنتجاتها، ولتشترى حاجياتها ومتطلباتها... وعلى مقربة منى بسوق الأغنام، إذ برجلين: بائع ومشترى، يقوم المشترى بتسليم البائع ثمن ما اشتراه منه من الأغنام... وإذا بورقة نقدية فئة العشرة قروش، تسقط منهما، وانصرفا دون أن يشعرا بها... فتوجهت صوبها وأخذتها بيدى، فوجدتها جديدة جديدة، تغرى طفلًا مثلى، قلما- بل نادرًا- ما يحوز مثلها... فبدلًا من أن أركض خلفهما لأسلمها لهما، سوّلت لى نفسى أمام إغراء هذه الفئة النقدية الجديدة أن أحتفظ بها لنفسى، فخبأتها فى جيبى دون أن يرانى من البشر أحد.

وعند عودتى إلى المنزل، خبأتها فى مكان لا يعثر عليها فيه أحد من أهلى، ولاسيما والدتى، التى كانت تحذرنا دائمًا من إحضار أى شىء من قبيل الحرام إلى المنزل، أو حتى أن نأخذه لأنفسنا، قل أو كثر، فكيف بها لو علمت بفعلتى؟ وما مصيرى أمامها آنذاك؟...

وقد ينظر البعض- الآن- نظرة احتقار إلى القروش العشرة التى وجدتها وأخذتها لنفسى، أو الإقلال من قيمتها... ولكن قيمتها- حينذاك- لا تقل عن قيمة عشرين جنيها حاليًّا، حيث كان بالإمكان شراء ثلاث بيضات بقرش واحد، بل ويمكن إذا كان المشترى طفلًا حصوله على الرابعة هدية، كدأب أهل القرية آنذاك، كما كانت أجرة العامل اليومية بالعشرة قروش.

المهم... وكشأن الأطفال، كنت عندما أخرج لألعب مع أطفال القرية، أشعر- فى قرارة نفسى- ودون أن أفصح لأحد منهم، أننى أثرى الأثرياء وأغنى طفل بينهم، وكنت بين الحين والحين أتسلل فى خفية لأختلى بتلك العملة الورقية وأخرجها من مخبئها، لأجدد الشعور بأننى أثرى الأثرياء وأغنى الأغنياء، على الأقل بين قرنائى من أطفال القرية.

ولكن... وبعد يومين أو ثلاثة أيام، أصبت بوعكة صحية، استمرت معى على غير العادة عدة أيام، مما اضطر والدى إلى الذهاب

بى إلى الطبيب، مما كلفه- يومئذ- ثلاثين قرشًا لعلاجى... واستمرت تلك الوعكة حتى دار الأسبوع وجاء موعد سوق القرية، وأنا ما زلت أعانى من تلك الوعكة.

وأحمد الله تعالى أن هدانى تفكيرى يومها- رغم صغر سنى- إلى الربط بين المرض الذى اعترانى وبين القروش العشرة التى وجدتها وأخذتها لنفسى دون أن أعيدها لأصحابها... فما كان أمامى-وأنا لا أرى ساعتها للوعكة نهاية- إلا أن أصارح والدتى بما حدث معى فى الأسبوع الماضى بسوق القرية، وليكن ما يكون... فقلت لها بما حدث، واستسلمت لرد فعلها... فقالت أول ما قالت: أين هذه القروش العشرة؟ فأخبرتها بمكانها، فأحضرتها، ثم قالت عبارة ما زلت أذكرها وما زال صداها يتردد فى أذنای حتى الآن، نعم حتى الآن، بعد مرور أكثر من أربعين عامًا، وما زلت أتذكرها وأسمع صداها فى كل موقف مشابه... قالت: أتدخل علينا نارًا فى البيت يا ولدى؟ قالتها أكثر من مرة... وأخذت النقود، وعلمت بعد ذلك أنها تخلصت منها بإعطائها لأحد الشحاتين الذين يمرون بالقرية، لعدم معرفة صاحبها الحقيقى...

المهم... سمعت عبارتها، وأخذت أتساءل فى نفسى: أى نار أدخلتها أنا البيت؟ فأنا لم أقترب من أى نار، ولم أحضر نارًا إلى المنزل، ولم أعبث بالنار أو بالكبريت، ولم ولم ولم... ولكنى فطنت بعد ذلك

بأن العشرة قروش الحرام فعلًا نار، لأنها أكلت ثلاثين قرشًا للعلاج بخلاف المصاريف الجانبية، وأكلت الصحة لفترة خلفت فيها الضعف والهزال، وأكلت ما قدموه لى من غذاء خاص لأسترد به صحتى وعافيتى، بل وقد تكون أكلت من الحسنات و... هذا بخلاف ما يترتب على الحرام من نار الآخرة.

والأهم... هو أن عبارتها: أتدخل علينا نارًا فى البيت يا ولدى؟ صارت عنوانًا أراها أمامى وأقرأ كلماتها وأسمع صداها كلما وجدت نفسى أمام موقف مشابه... إنها عبارة تشعرنى بمراقبة الله، وتحذرنى من سوء العاقبة لو أقدمت على ما يغضب الله فأخذت مالًا حرامًا لأن الحرام نار تأكل الحلال وتذهب به، هذا فى العاجل الدنيوى، بخلاف ما يترتب على الحرام من عقاب آجل أخروى.

هوامش الفصل الرابع

(١٩٤) سعيد إسماعيل على: **غروب الضمير**، القاهرة، عالم الكتب ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ص٣، ٨١.

(١٩٥) مسلم (٣٨)، الترمذى (٢٤١٠).

(١٩٦) البخارى (٢٢٩٥)، مسلم (٥٧)، الترمذى (٢٦٢٥)، أبوداود (٤٦٨٩).

(١٩٧) مسلم (٥٧).

(١٩٨) مسلم (١٠١).

(١٩٩) مسلم (١٠٢)، الترمذى (١٣١٥)، أبوداود (٣٤٥٢).

(٢٠٠) المنذرى (٢٦٥٠)، السيوطى (٨٨٨١)، الألبانى (١٢٩٢) [الصحيحة (١٠٥٨)].

(٢٠١) الترمذى (١٣٣٧)، أبوداود (٣٥٨٠)، السيوطى (٧٢٥١).

(٢٠٢) السيوطى (٧٢٥٤).

(٢٠٣) السيوطى (١٧٥٧)، الألبانى (١٧٥٠) [الصحيحة (١٧٥٤)].

(٢٠٤) البخارى (٦٦١٨)، مسلم (١٤٢)، المنذرى (٣٢٨١).

(٢٠٥) الترمذى (٦٨٤).

(٢٠٦) المنذرى (٢٦١١)، الألبانى (١٣٠٨) [الصحيحة (٢٦٠٩)].

obeikandl.com

(٢٠٧) البخارى (١٨٧٠)، مسلم (٧٥٩)، الترمذى (٨٠٨)، أبوداود (١٣٧١)، السيوطى (٨٩٠١).

(٢٠٨) مسلم (٧٦٠)، السيوطى (٨٧٧٥)، الألبانى [صحيح الجامع (٦٣٢٦)].

(٢٠٩) البخارى (١٧٦٨)، مسلم (٧٦٠)، الترمذى (٦٨٣).

(٢١٠) مسلم (١٣٥٠)، السيوطى (٨٦٢٦)، الألبانى [صحيح المشكاة (٢٥٠٧)].

(٢١١) مسلم (١٣٤٩).

(٢١٢) السيوطى (٨٨٩٦)، الألبانى (١١١٠) [الصحيحة (٢٣٥٥)].

(٢١٣) البخارى (٥٩٢٦)، مسلم (٢٦٩١)، الترمذى (٣٤٦٦).

(٢١٤) حامد أحمد الطاهر: **مائة قصة من قصص الصالحين**، القاهرة- المنصورة، دار الغد الجديد، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص١١.

(٢١٥) أ- محمود المصرى: **ساعة وساعة**، مرجع سابق، ص ص٩٣-٩٥.
ب- حامد أحمد الطاهر: مرجع سابق، ص ص١٢٠-١٢١.

(٢١٦) محمود المصرى: **ساعة وساعة**، مرجع سابق، ص ص٦٣-٦٤.

(٢١٧) المرجع السابق، ص ص١٢٦-١٢٧.

(٢١٨) المرجع السابق، ص ص٢٧٧-٢٨١.

(٢١٩) حسين عصفور: **مائتى قصة وقصة فى سمير الصالحين وأنيس المتقين**، القاهرة، دار المنار ١٩٩٨، ص١٨٢.

(٢٢٠) السيوطى (٣١٩٩).

(٢٢١) الترمذى (٢٠٠٧).

(٢٢٢) الترمذى (٢٠٠٤).

(٢٢٣) عفيف عبدالفتاح طبارة: مرجع سابق، ص١٧٩.

(٢٢٤) محمد بن صالح العثيمين: **أسماء الله الحسنى**، شبين الكوم، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٢٢٣.

(٢٢٥) البخارى (٤٨)، مسلم (٨).

(٢٢٦) أحمد مصطفى متولى: مرجع سابق، ص٤١٧.

obeikandl.com